ارتحال الصديق

مصطفى صادق الرافعي

لإسماعيل مظهر

لئن لم يكن في موت الرافعي من أثر إلا أن تكون فجيعتنا فيه فجيعة العربية والعروبة، وفجيعة اللغة والأدب والفن الإسلوبي الأسمى، بل وفجيعة الإسلام، لكفى بموته واعظاً يعظنا، وذكرى تساورنا عن تلك القرون الماضيات التي ارتحل فيها من أمثاله أقلون امتازوا بما امتاز به من اصقال الطبع وحية الروح وصفاء القلب ونقاء النفس. ثم أقلون هم أولئك الذين اتصفوا بما أضفت الطبيعة على الرافعي من صفات اليقظة الحقيقية. فقد كان رحمه الله يقظ النفس، يقظ الروح، يقظ الفؤاد. فأكسبته يقظة نفسه قوة الإيمان. وأكسبته يقظة روحه قوة العمل. وأكسبته يقظة فؤاده قوة الحرية والصراحة. فقد عاش رحمه الله مؤمناً عاملاً حراً مستقلاً ما أضناه حب الجاه الكاذب يوماً فأرغمه على أن يلوذ بأذيال عظيم أو يداجي ابتغاء مرضاة السلطان. بل عاش لنفسه ولإيمانه وحريته، فكان المثل الأعلى في زمان قلت فيه المُثُل وكثرت المثلات

لا يعنينا من أمر الرافعي وقد ارتحل عن هذا العالم الفاني، أن نصفه فنخرج منه صوراً نحاول أن نطبعها في عقول أهل هذا الزمان، فإن ما بين الرافعي وبين الكثيرين من أهل هذا الزمان من فروق تجعل طبع صورة صحيحة من شخصيته في عقول الناس أمراً عسيراً. فلا أحاول هذا إذن الآن بل أحاول أن أقضي حق صديق رحل، فأقول فيه ما أعتقد أنه الحق، وإن لم يحمل ما تركت صداقته في نفسي من آثار لعلي لا أخطئ إذا قلت إنها آثار باقية، على قدر ما أشعر في قرارة نفسي من ثقة بأن للرافعي في نفسي آثاراً تتناول نواحي شتى. فلقد كان لذلك الراحل الكريم شخصية تشيع آثارها في نفسك شيوع الكهرباء في المادة الجامدة فتكسبها معنى جديداً هو معنى القوة المحركة، ثم لا تتبدد

كنت أشعر بأني إلى جانب الرافعي في رحابة صديق خالص الود زكي القلب، نقي السريرة، بعيد عن أن يفكر في أن يستغل صداقتك إلا للصداقة، فإن غضب فللصداقة وإن عتب فللصداقة وإن قطعك فللصداقة أيضاً. فكانت الصداقة عنده معنى يتمثله في شخصك راجياً أن يصدق حدسه فيك، فتكون الجدير بتمثيل هذا المعنى السامي الذي تحيز في خياله حتى كاد يتجسم،

وأكنّه في قلبه حتى كاد يضيق به ، فإن تنس عن شيء فمن كل ما يزيدك ثقة بأنه صديق

كنت أستشم ريح الايمان الطاهر منبعثاً عن نفسه الطاهرة . ما كان يعنيني من أمر إيمانه من شيء الا انه ايمان . ايمان ثابت حتى في الاشياء التي كانت تخالف مذهبه في الادب أو مذهبه في الدين ، طالما اعتقد انك ان خالفته في شيء فانما تخالفه فيه عن ايمان يشبه ايمانه بما يعتقد به . ولعمري ان هذا لاسمى صور الايمان وأرقى مراتب الحرية الصحيحة

أهدي إليّ رحمه الله يوماً كتابه « اعجاز القرآن » وكنت أصدر « الصور » ، فعقدت فصلاً في معنى الاعجاز تعليقاً على رأيه فيه ذهبت فيه مذهباً لا يتفق في شيء مع رأيه ، بل ولا يلتقي به في ناحية من النواحي ، بل اني لاذكر أني تشددت بعض الشيء ، وهاجته في مواطن . وكنت اذ ذاك حديث العلاقة بالرافعي ، وقد تبادر الي ان ما انشر انما يفقدني علاقتي برجل اعتقد انه عظيم . ولكن الصديق الراحل رحمه الله ، تلقى ما كتبت رحب الصدر راضي النفس ، وتلقاني بذلك البشر الطافح من أساريره الواضحة المعاني قائلاً : ان البئر التي اترحت منها أفكارك في الاعجاز لن اشرب منها . ولكن حسبك انك اترحت منها مؤمناً بصلاحية مائها . ومرّت الايام فلا القاه الا استعجلني ترجمة كتاب عن عَـلَم من اعلام اوربا ، مختاراً في الاكثر الكتب التي تدعو الى حرية الفكر والى نشر المبادىء العلمية الحديثة كأنه كان يعتقد ان الايمان الصحيح لاينبغي ان يقف عثرة في سبيل الفكر أيّا كان متجهه ومرماه

كان للرافعي لون من الادب ، لا اختار ان احلل الصورة التي انطبعت منه في نفسي قبل ان أشهد لذلك بشهادة علم من اعلام زماننا هذا . فقد كتب استاذنا الكبير احمد لطفي السيد باشا فصلاً في الجريدة ، عندما اصدر الرافعي كتابه « تاريخ آداب العرب » سنة ١٩١٢ جاء فيه :

« قرأنا هذا الجزء . فأما نحوه فعليه طابع الباكورة في بابه . يدل على ان المؤلف قد ملك موضوعه ملكاً تاماً ، واخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفاً حسناً . وليس من السهل ان تجتمع له الاغراض التي بسطها في هذا الجزء الاول ، الا بعد درس طويل وتعب مملّ ، لم يتأخر هو عن وصفه في مقدمة كتابه . واما اسلوب الرافعي في كتابته فانه سليم من الشوائب الاعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا عن العرب المتأخرين . فكأني وانا أقرؤه أقرأ من قلم المبرّد في استعماله المساواة والباس المعاني الفاظاً سابغة مفصلة عليها لاطويلة تتعثر فيها ، ولا قصيرة عن مداها تودي ببعض اجزائها . وان هذا الجزء بل هذه المقدمة ، تدل على ان المؤلف سيخرج لنا من تاريخ آداب العرب ما يجمع شملها بعد التشتت في كتب متعددة ، ويكون بذلك قد أدّى للامة أعظم خدمة يؤديها اشد الادباء غيرة على الادب » . . . . اذن فقد لمح استاذنا الكبير في الرافعي ما لمح فيه كل قارئيه . لمح فيه سلامة الاسلوب من الشوائب الاعجمية ، ولمح فيه

إعانه بآداب العرب، تلك التي أوصد نفسه لخدمتها، خدمة لن يؤديها الا اشد الادباء غيرة على الأدب

كان ذلك في عصر لم نعز فيه بعد الاساليب التي شابتها شوائب الأعجمية (لا رحمها الله) ولم يضعف ايماننا بآداب العرب، ولم تتبدل من ثقافتنا التقليدية ثقافة دخيلة مزجرجة كالزئبق مرنحة كالجدار الذي يريد ان ينقض، وكان الرافعي يحاول ان يقيمهُ

كان ذلك في عصر اعتقد فيه الادباء ان العربية وآدابها اصل تقليدي، ما ينبغي الا ان يكون اساس الادب الحديث، وان الادب الغربي ليس الا لقاحاً يغذي ذلك الاصل. لم نكن قد اعتقدنا بعد، عن خطإ واسراف، ان أدب الغرب ينبغي ان يتخذ اساساً وان اللغة العربية ليست الا اداة التعبير عنه. ولم نكن قد اسمينا هذا الاسراف تجديداً، ولم نكن آصفينا على الذين يحافظون على الاسلوب العربي الصميم ويحاذرون ان يشوب هذا الاسلوب شيء من شوائب الاعجمية، لقب المقلدين (الكلاسيك) لا لنكرم فيهم هذه النزعة، وانما لنتخذها سبباً للسخرية منهم والاستهزاء بهم؛ ولم تكن نابتة الأدباء اذ ذاك قد ترددوا في «الاستغراب» حتى ابتتت بهم الصلة او كادت، بأدب أوائلهم وأساليبهم، ولم نكن قد فتنّا بعد، وكفى بالفتنة صدعاً تخشى ان نعجز عن رأبه. كان ذلك في زمان قاد الادب فيه عقول رشيدة متزنة، وكان الادب بمعزل عن السياسة وعن حب التظاهر الكاذب وعن حب المادة حبًّا أفقد الادب في عصرنا صفة الاستقلال عن الارضيات السُّفلى. كان ذلك في عصر محمد الرافعي لان الرافعي حاول ان يحيي موات الاساليب المنتقاة وان يجمع ما تشتت من آداب العرب. كان ذلك في عصر لم يرَ ادباؤه في احياء لفظة عربية غريبة الا انتصاراً للادب والعربية. كان ذلك في عصر قال فيه استاذنا احمد لطفي السيد باشا ما معناه: لئن مجد الانجليز شكسبير لانه احيي من موات اللغة الانجليزية آلافاً من الالفاظ المهجورة فالأجدر بنا ونحن في مستهل حياة جديدة الا نكون أقل منهم تمجيداً لمن يحيي من موات لغتنا ما أمات الاغفال. هنالك في ذلك العهد عرف أدب الرافعي ومجّد. فلما أظلنا عصر الانتحال، انتحال الاساليب الغربية وانتحال الآداب الغربية، وطغت الفتنة، كافح أدب الرافعي مدّ الفتنة الجديدة كفاحاً سوف نجد أثره في تاريخ عصرنا هذا. لهذا كان الرافعي صاحب مذهب في الادب هو من حيث الاسلوب والبيان المذهب الذي ينبغي ان يسترشد به نابتة الادباء في هذا العصر، ليكون أداتهم السليمة في التعبير عن القيم الجديد. ولا شك عندي في ان الادب الجديد ان اتخذ من الاساليب السليمة اداة للتعبير، لاستطاع ان يؤدي رسالة جديدة للعربية، ما يحول دون ادائها الآن الا عجمة الاساليب وقد خلت من جمال السبك وقوة البيان فشوهت من جمال ما نقلنا عن الغرب، وصدئت نفس الاديب عن تذوق ما فيها من جمال الفكر

أجدّد للرافعي وقد ارتحل، بهذه الكلمات عهد الوفاء، جزاء ما غمرنا به في حياته من صداقة خالصة وإيمان ثابت وحب ما تزول ذكراه